الرياض

المبدأ والمصلحة في العلاقات الدولية

حمد بن عبدالله اللحيدان

- الاختلافات

بين الأشخاص وكذلك بين الأمم والدول تحكمها دائماً مبادئ ومصالح، وكانت المبادئ في القديم وحتى عهد ليس بالبعيد هي الأساس الذي يعول عليه فكل شيء يمكن مناقشته والحديث عنه حتى يصل الموضوع إلى المساس بالمبدأ وهنا تتشكل ما يسمى بالمواقف الأساسية التي لا يمكن الحيود عنها أو التزحزح عنها حتى ولو قيد أنملة.. ذلك أن المساس بالمبدأ أياً كان نوعه يعتبر إعلان حرب أو انتهاك لسيادة دولة أو تحد وتجر على كرامة وعزة هذا الطرف أو ذلك.. وكانت بقية المصالح تعمل وتستخدم لخدمة ذلك الغرض السامي وهو المبدأ.

أما اليوم فإن المبادئ في كثير من دول العالم أصبحت شعارات تسطر ضمن مواد الدستور يتزينون بها ويفاخرون بها الآخرين ويرددونها في خطبهم ومنتدياتهم كما يقدمون بها أنفسهم عند الحديث عن دولهم.. ولو أن كل دولة من الدول وأعني المتقدمة منها طبقت ما ينص عليه دستورها في سياساتها الخارجية لوجد عالم يسوده الأمن والاستقرار.. ذلك أن تلك الدساتير تشير إلى محاربة التفرقة العنصرية وارساء قواعد العدل والسلام والإيمان بمبادئ منظمة الأمم المتحدة وفروعها المختلفة ومناهضة العنف والجور بجميع صوره وألوانه والحض على مساعدة القوي للضعيف في جميع المجالات التي تخدم وتسعد البشرية.. نعم ان كثيراً مما تنص عليه دساتيرهم يطبق داخل حدود بلادهم حتى جاءت أحداث 11سبتمبر الماضي حيث فشلت الديمقراطية والقوانين الوضعية وحماية ضيوف أمريكا المسلمين والعرب من الطلاب وغيرهم حيث شكلت المحاكم العسكرية والصقت التهم جزافاً وتم الاعتقال دون محاكمة وطبقوا ما كانوا ينتقدون دول العالم الثالث على ممارسته من تغييب للحريات وتجديد لحرية الإعلام وانتهاك لحقوق الإنسان وغيرها كثير.

أما ما يخص العلاقات الخارجية والدول الأجنبية فإن المصلحة تغلب عليه أي تصبح المصلحة هي الفيصل الذي يحكم وليس المبدأ.. وعلى العموم فإن العصر الحديث قد شهد ميلاد كثير من القوانين والأنظمة الجيدة وأولها مبادئ الثورة الفرنسية التي لو استقرأها الإنسان بدقة وتمعن لم يجد فيها جديدا فجميع البنود الجديدة فيها مستمدة من الشريعة الإسلامية التي سبقت تلك الثورة بأكثر من اثني عشر قرناً.. ثم تلت فرنسا في هذا الاتجاه دول أوروبا وأمريكا ثم جاءت بقية دول العالم وأعني دول العالم الثالث مقلدة لا مبدعة حيث بدأت تكتب الدساتير وتعلن عنها ثم يتم نسيانها ضمن المحفوظات في

الأرشيف العام.. ولا ينتبهون لها مرة أخرى إلا عند حدوث انقلاب عسكري أو نحوه حيث يتم تبديل المواد أو كتابة دستور بديل يحكمه هوى من أمر به بحيث يفصل الحديث على الحدث وقد يحتاج الأمر إلى تمثيلية تضع النعامة رأسها فيه معتقدة أنها وصلت إلى قمة الديمقراطية وكأن الأمة من مثقفين وسياسيين وإعلاميين ومفكرين وعلماء قطيع لا يفهم شيئاً، فنتيجة الانتخابات تأتي أربع تسعات 99.99% أو أكثر أي اجماع منقطع النظير لا يتحمل فيه من تم انتخابه حتى مجرد الإشارة إلى أن هناك معارضة حتى بنسبة 2أو 3بالمائة.

وهذه الحساسية تجاه المعارضة تكون مرافقة له طوال مدة إدارته المديدة فليس هناك رأي آخر أو هو مرفوض جملة وتفصيلاً وإن لم يكن علناً وبصورة رسمية.. والقاعدة الفيزيائية تقول ان لكل فعل ردة فعل مساوية له في القوة مضادة له في الاتجاه، وأعني أن سبب ذلك الخلل في دول العالم الثالث أن المعارضة ليست ديمقراطية ايضاً فإن انتقدت تعدت حدودها ولم تلتزم بالنظام وان احتجت لجأت إلى العنف والتخريب وإن امسكت بزمام الأمور انتقمت شر انتقام وهذا لا يحدث في الدول المتقدمة لذلك تكون ردة فعل النظام هو عدم السماح بوجود معارضة من هذا النوع.. ان الاحتجاج في دول الغرب مسموح به والاعتراض مسموح به أيضاً لكن ضمن حدود النظام واللياقة.. فإذا أرادت مجموعة من الناس الاحتجاج على قانون معين أو قرار معين فإنهم يتجمعون في أدب ثم يكتبون احتجاجهم على لافتات كبيرة ثم يشكلون مسيرة سلمية كبيرة يحرسها ويشرف عليها رجال البوليس المدججين بالهراوات والسلاح والويل كل الويل لمن يعبث بالأمن أو يخل بالنظام العام، أو ينتهك الحرمات أو الممتلكات العامة والخاصة.

أما في دول العالم الثالث فإن الاحتجاج على أمر معين يأخذ شكل العنف منذ اللحظة الأولى فالشجار والحرق والتكسير أهم معالمه ناهيك عن الخسائر في الأرواح وهذا أمر مرفوض ممجوج لا يبرره العقل ولا المنطق ولا المبدأ ولا المصلحة العامة.

والحديث عن الاحتجاج يذكر بالأيام الأولى لبدء انتفاضة الأقصى التي لا زالت مستمرة والتي قدمت من ضحاياها أكثر من الف من شباب فلسطين وفي مقدمتهم الأطفال والنساء والشيوخ ولقد رافق بدايات تلك الانتفاضة شيء من الاحتجاج الشعبي في بعض الدول العربية وكان لتلك الاحتجاجات ردود فعل ايجابية في جميع أنحاء العالم خصوصاً في العواصم الغربية وتلك الاحتجاجات أخذت عدة أنواع منها ما اتصف بالدعم المادي مثل حملة الأقصى لجمع التبرعات في المملكة العربية السعودية والتي أدت إلى جمع أكثر من مئة وخمسين مليون ريال خلال أقل من أربع وعشرين ساعة ومنها ما كان مظاهرات تضامن مع انتفاضة أبطال الأقصى وفلسطين كما حدث في بعض الدول العربية ثم خبا الاحتجاج وأصبحت أخبار الانتفاضة تنقل في وسائل الإعلام العربية والعالمية بصورة روتينية.. ولا يبعدها إلى الصدارة إلا التفجيرات الانتحارية حيث تؤدي إلى الصراخ والعويل من قبل إسرائيل ومؤيديها وهنا فقط تتحرك ضمائر الغرب لحماية ربيبتهم إسرائيل.

والذي يمكن قوله هو اذا كان احتجاج الشارع العربي سواء كان مادياً ويتمثل بالتبرعات المادية والعينية أو معنويا ويتمثل في مظاهر الاحتجاج السلمي الذي لا يسيء إلى الأمن والنظام والاستقرار وفي نفس الوقت يظهر عدم الرضا عن همجية العدو والمتمثلة في قتله للمدنيين وحصاره للمدن وهدمه المنازل وترويع الآمنين باستخدام أحدث ما أنتجته أمريكا من سلاح.. وتظهر كل فعلة من أفعاله أمام الرأي العام العالمي، خصوصاً أن العالم أصبح صغيراً مع ثورة تقنية المعلومات ومنها نظام الاتصالات المختلفة مثل البث المباشر عبر الفضائيات وشبكة الانترنت وغيرها من وسائل الإعلام المسموع والمقروء والمشاهد.

إن التعبير عن الفرح أو الترح لا يمكن أن يقبل إذا كان يؤدي إلى ضرر بالممتلكات العامة أو الخاصة ولا يمكن أن يقبل أيضاً إذا كان فيه خروج على النظام العام بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لأنه إذا فعل ذلك فإنه يصنف ضمن قائمة التخريب والعنف والإرهاب.

لذلك فإنه من الأجدر بالدول العربية أن تقوم بتقاسم الأدوار وبصورة مستمرة بحيث تصبح المواقف الرسمية مدعومة بالمواقف الشعبية التي يمكن تنظيمها بصور وأشكال مختلفة حسب ظروف كل دولة وامكانياتها، فالدول الغنية يمكن أن يكون التعبير الشعبي فيها لمؤازرة انتفاضة الشعب الفلسطيني على شكل تبرعات عينية ومادية وفي الدول ذات الكثافة السكانية يمكن أن يستعمل الشارع للاحتجاج بصورة حضارية منظمة تتشكل وتتطور حسب الأحداث واتجاهاتها ناهيك عن استخدام وسائل الإعلام المختلفة في جعل تلك الأحداث في مقدمة اخبارها وتغطياتها وأنا هنا لا أقصد تأجيج الرأي العام العربي عاطفياً بقدر ما أقصد من ذلك ارسال رسالة واضحة للدول التي تساعد إسرائيل مادياً ومعنوياً بأن مثل ذلك الدعم مرفوض ليس فقط من خلال الناطق الرسمي لهذه الدولة أو تلك بل هو مرفوض من قبل عامة الناس.. ذلك أنهم يحسبون لرأي الشارع الف حساب في تخطيطاتهم وبرامجهم وبالأحرى مصالحهم العامة والخاصة فهم دائماً بعيدو النظر في هذا الخصوص وكل حدث لديهم يقاس نجاحه من فشله عن طريق استقراء ميول واتجاه الرأي العام.

وعلى الرغم من أن الاحتجاج بحد ذاته هو لغة العاجز إلا انه عند الضرورة وفي غياب البديل يجب أن يستعمل كحد أدنى لرفع الظلم لذلك فإن أسلوب الاحتجاج العربي الحالي يجب أن يتغير ويصبح أكثر عصرية وأن يصبح الشجب أو الاستنكار مدعوماً بوسائل أخرى أكثر تحضراً وأكثر أثراً وأبعد من مجرد كلمات مختصرة تذروها الرياح ويطويها النسيان لذلك فإن التكرار وإعادة تغطية الأحداث بصور وأشكال مختلفة يجعلها في مقدمة الأحداث العالمية دائماً مما يضفي عليها أهمية كما يضمن عدم نسيانها خصوصاً مع الصخب الإعلامي الحالي الذي يجعلك تنسى أحداث الأمس القريب.

وبالطبع مثل هذه الاستراتيجية يمكن تبنيها من حيث المبدأ في مؤتمر عاجل للقمة العربية حيث يمكن دعم المقاطعة العربية لإسرائيل والذي يجب أن يكون للجامعة العربية دور فاعل فيه وأن تتخلى الجامعة العربية عن دورها الجامد والروتيني وتتبنى سياسات أكثر فعالية.. ان الجامعة العربية ظلت طوال حياتها أشبه بالرجل المريض الذي لا حول له ولا قوة.. لقد آن الأوان لكتابة ميثاق الجامعة العربية بصورة أكثر عصرية يفتح للمناورة باباً أوسع ويجعل لمكاتبها المنتشرة هنا وهناك حضورا دائما من خلال التنسيق المدروس والمتفق عليه خصوصاً مع ما تم من إعادة هيكلتها ووجود أمين عام جديد أكثر نشاطاً.

إن العرب اليوم مطالبون أكثر من أي وقت آخر بتعزيز مكانة الجامعة العربية واعطائها صلاحيات أكثر لأنها تستطيع أن تتحرك بصورة أكثر حرية من الأنظمة والحكومات خصوصاً مع التوجه العالمي لخلق تكتلات اقتصادية واقليمية عملاقة.

فهذه أوروبا تتحد وتنسى الاختلافات العرقية والايدلوجية واللغوية بين شعوبها بما في ذلك حربان عالميتان وهذه أمريكا وكندا والمكسيك تعمل على خلق عملاق اقتصادي منافس وهذه الصين ودول جنوب شرق آسيا تتكامل مع بعضها البعض وفي مقابل ذلك نتمنى أن يتفق العرب على الحد الأدنى في مجال التنسيق والتكامل السياسي والاقتصادي والعسكري فإن لم يكن ففي مجال الاحتجاج على ما يفعل بكرامتهم من استهانة وعدم اكتراث من قبل الآخرين وذلك أضعف الايمان خصوصاً ونحن نقرأ ونسمع ونشاهد تلك الحملة الشرسة ضد العرب والإسلام ممثلة في المملكة العربية السعودية من قبل اليهود واعوانهم والمرافقة لحرب الارهاب والتي سوف تستعمل عصا غليظة تسلط على رقاب العرب والمسلمين ان لم يتحدوا ويتكاملوا.

نعم ان بعض العرب هم السبب في بعض ما يحدث للعرب من اهانات والسبب ان كل واحد منهم يعمل بمفرده وعلى شاكلته وبما تقتضيه مصلحته الشخصية بعيداً عن مبادئه فلو جعل المبدأ هو المعيار لاتحد العرب ذلك أن لهم مبدأ واحدا هو الإسلام وهذا ما ظلت المملكة العربية السعودية تنادي به منذ بداية تأسيسها على يد المؤسس الراحل الملك عبدالعزيز رحمه الله ثم تابع أبناؤه من بعده هذا التوجه الكريم حتى عهد خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين وسمو النائب الثاني حفظهم الله، فكل المبادرات الجيدة تجدها تنبع من هنا كيف لا ونحن نحكم شرع الله في السر والعلن ونجعله دستورنا الذي لا يمكن لبشر أن يعدل فيه فهو من تنزيل رب العالمين.. كيف لا وأرضنا تضم الحرمين الشريفين حيث قبلة المسلمين ومهوى أفئدتهم وإليها يحجون ويعتمرون من جميع أنحاء المعمورة على مر السنين.

ومن هذا المنطلق وترسيخاً لهذا المبدأ.. جاءت مواقف صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني حفظه الله والتي أعلنها وكررها امام القيادات الدينية والجامعية والاقتصادية والعسكرية التي اجتمعت بسموه الكريم والتي قال فيها ان الدين والوطن ليسا محل مساومة وان عزة وكرامة الأمة فوق كل اعتبار وهذا ليس غريبا على سموه فهو يلتزم بالمبدأ الذي تقوم عليه الدولة وهو مبدأ الإسلام الذي لا تغيره الأحداث ذلك انه رسالة السماء.

وفي الختام أحب أن أشير إلى أن على العرب ايجاد السبل والوسائل التي تظهر رأيهم وتضمن حقوقهم فالعدو قد قسم نفسه إلى دوائر وأحزاب سياسية منها الصقور ومنها الحمائم ومنها الوسط وتظاهروا بالاختلاف مع انهم متفقون بينما العرب يتظاهرون بالاتفاق مع انهم مختلفون والدليل على ذلك ان اختلاف الأعداء لا يتعارض مع مصالحهم بل يصب في صلب تلك المصلحة بينما الاتفاق الظاهري للعرب لم يخدم مصالحهم فقراراتهم في كثير من الأحيان لا تجد طريقها إلى التنفيذ بسبب الاختلاف الباطني ناهيك عن عدم وجود من يدعم مواقف الرفض لديهم فظهورهم دائماً إلى الحائط.. وأما سياسة الاختلاف الظاهري هذه والتي لا تستخدمها اسرائيل فقط بل ان كثيراً من دول العالم المتقدم تجدها تتكون من جهتين أو أكثر متعارضة ظاهريا ومتفقة داخلياً على المبدأ العام.. الذي لا يمكن المساس به وأبعد من ذلك تجدهم متفقين على المصلحة العليا لبلادهم فهم يتنافسون فيمن يستطيع أن يحقق قصب السبق في هذا المجال.. اننا نستطيع ان نقول من تعلم لغة قوم أمن مكرهم ومن استفاد من تجارب الآخرين عرف سر نجاحهم.

إن لدى العرب مصالح كثيرة وكبيرة يحتاجها الغرب فهل يستطيع العرب أن يدعموا مواقفهم بحيث يخشى الغرب على مصالحه وبالتالي يعدل من مواقفه المنحازة جملة وتفصيلا إلى جانب إسرائيل ناهيك عن ان اتحاد العرب سوف يبعد عنهم شبح حرب الارهاب ذلك الشبح الغامض الذي ليس له تعريف إلى ما تقرره مصلحتهم.

والله المستعان